

## الشعر والشعراء بالمغرب عبر العصور\*

عبد العزيز بنعبد الله

إن نظم الشعر موهبة، والإبداع في نسج مناويله عبقرية توذن بحساسية متناهية وشاعرية خلاقة، وكثير من فنون البيان وصنوف البديع لم يعرفه الخزرجيون ولا شراح كتب العروض كفن (المدرج) الذي لم يذكره سوى علماء الحديث.

فاسم الشاعر لا يطلق - كما يقول محمد بن العربي الشرقي - «إلا على من وصف في حرم المعاني بكل المشاعر، أما من سلك طريقة واحدة فأراؤه فاسدة وبنائه على غير قاعدة». وهو يقصد بهذا التعريف جولات الشاعر وصولاته في شتى مجالي الحياة التي يحاورها بكل أحاسيسه «فالضلالة في علم العروض ليست شرطاً في قرص الشعر لأن غاية نظم الشعر صفة كمالية والقدرة على نظمه طبيعة غريزية وإنما يحتاج لعلم العروض ليعرف المتزن من النظم من غيره، فسيدي إدريس العراقي من العلماء المحققين كانت له اليد الطولى في العروض ومع ذلك لم يعرف له بيت شعر وكان لا يقدر أن يلفق سطرًا واحدًا منه»<sup>(1)</sup>

فالشعر فن له قواعده لاسيما الموزون منه - لأن الشعر الحر والمرسل لا يدخل في نطاق بحثنا هذا - وقد كانت مكتبات شعرائنا منذ العصور الأولى مليئة بالمصنفات التي استهدفت تقعيد هذا الفن منها المشرقي أو الأندلسي أو المغربي أمثال :

- (البديع في صناعة الشعر» لبيزغ 488) ليحيى بن عبد المعطى بن عبد النور الزواوي المتوفى ( عام 628 هـ 1231 م).

- «وصل القوادم بالخوافي ، في ذكر أحكام القوافي»

لابن رشيد السبتي، وهو شرح لقوافي شيخه (حازم القرطاجني).

---

\*هذه خلاصة مقدمة لكتاب مازال مخطوطاً بعنوان : «الشعر والشعراء بالمغرب منذ أزيد من ألف عام».

- «الوافي في نظم القوافي» المنسوبة لصالح بن شريف الرندي (684 هـ/ 1285<sup>(2)</sup>)

- «ضبط البحور الشعرية» المنسوبة لأحمد بن عباد السايح<sup>(3)</sup>.

ولعل مما امتاز به المغرب في هذا المجال عدم تخرج العلماء من نظم الشعر كما وقع للإمام الشافعي القائل :

ولولا الشعر بالعلماء يزري      لكنك اليوم أشعر من لبيد

ومع ذلك فله شعر كثير امتاز بالركة والعمق .

وقد اختار شعراء المغرب مجالات لتفريغ مواهبهم الملتهبة لا تقل سعة عن شبكة اختيار شعراء الشرق وإن كان للمغرب شعر خاص يضم ( رجزيات ) في نظم قواعد وأحكام كثير من العلوم، ولعل لهذا العامل أثرا في توافر الشعراء والعلماء. ولم يعرف المغرب ما عرفته الأندلس - عدا عطاءات الأمراء والملوك - من ربا ع قد وقفت على الشعر والشعراء. فقد حبس ابن الملح في شلب (Silves) أرضا من جملة ماله على الشعراء بلغت غلتها السنوية مائة دينار<sup>(4)</sup> لذلك كان معظم رجالات شلب شعراء.

وقد حفل المغرب عبر عصوره الزاهرة ب رجالات قاموا بحفظ وتدوين ورواية أشعار العرب في جنبات العالم العربي كافة منهم :

- محمد بن محمد بن أبي بكر الدلائي الشاذلي الذي انفرد بعلم اللغة وحفظ دواوين العرب وقد توفي (عام 1103 هـ / 1691 م)<sup>(5)</sup>

- علي بن عبد الرحمن بن أحمد بن عمران السلاسي قاضي فاس ومفتيها والمحدث المولود (عام 960 هـ / 1552 م) الذي يكاد يحفظ (اكتفاء) الكلاعي سارداً عن ظهر قلب القصائد المطولات التي توجد فيه.

- ومن أعلام الأندلس الذين أسهموا في دعم علمي الدراية والرواية بالمغرب محمد بن عبد الله بن قيس ابن الغازي القرطبي الذي توفي بطنجة (عام 296 هـ / 908 م) وهو الذي أدخل الأندلس والمغرب علماً كثيراً من الشعر والغريب والخبر، وعنه أخذ أهل الأندلس الأشعار المشروحة كلها<sup>(6)</sup>.

وقد كان للشعر العربي وجهاً بديته أثر عميق في الفكر المغربي مما فتق عبقرية وشاعرية رواده الذين خاضوا غمار مناظرات عرفها أقطاب القريض، ويكفي أن



نشير هنا إلى ما أبدعته يراعة عالم مغربي في هذا المجال وهو علي بن أحمد مصباح الخميسي يصلوتي المتوفى عام 1125 هـ (1713 م).

وقد تردد على الساحة المغربية نتاج الفكر العربي في كل مجاليه ومحاوره فعرف المغرب صنوفه من هجاء ورثاء ومديح وتغزل وتشبيب ووصف للطبيعة ومآثر للدول المتعاقبة على المغرب وغير ذلك مما رسمنا بعض ألوانه في تراجم شعرائنا ضمن هذا البحث.

وكان الشاعر العربي والمغربي يشعران ويعبران عن وحدة الصف والفكر والهدف في الوطن العربي ويتغنيان بأمجاده، ولنستمع الى البحثري يقول معرضاً بطنجة والسوس :

إن شعري سار في كل بلد      واشتهى رقتة كل أحد  
أهل فرغانة قد غنوا به      وقرى السوس وألطا وسدد  
وقرى طنجة والسوس التي      بمغيب الشمس شعري قد ورد<sup>(8)</sup>

وقد اهتم شعراؤنا بل وكل علمائنا - وإن لم يكونوا شعراء - كعلي بن أبي الحسين بن مومن بن محمد ابن عصفور الذي عرفنا جولاته وصلواته في مراكش وأنفا والذي توفي بتونس (عام 669 هـ / 1270 م ) وقد حلل لنا «سركات الشعراء» وكذلك «الضرائر الشعرية»<sup>(9)</sup> علاوة على إسهامه في بلورة عطاءات المتنبي الذي أفرد ديوانه بشرح قيم.

وبرز شعراؤنا في التوشيح على نسق الأندلس فرسموا روائع بذوا فيها أحيانا ينابيع الاقتباس، وممن نظم من المتأخرين على طريقة توشيح إبراهيم بن سهل الاندلسي (المتوفى عام 659 هـ / 1260 م) علي بن أحمد زنيير السلوي (المتوفى عام 1320 هـ / 1902 م) في رسالته :

«درر عقد النصيحة بسك الإبريز بنحور جنة حبور مولاي عبد العزيز»<sup>(10)</sup> ومن مظاهر استكمال شعرائنا لأبواب القريض نماذج أشرنا إليها في صلب بحثنا، وقد كان الشاعر الإفرائي يفتخر بأنه أشعر الشعراء، كما في «الدرر المرصعة» حيث قال:  
أنا أشعر الشعراء غير مدافع      من قال لست بشاعر ياتيني  
فكري هو البحر الخضم شبيهه      والبحر حاوي الجوهر المكنون<sup>(11)</sup>

وقد جمع (بن الأحمر اسماعيل بن يوسف) ما قيل من شعر من لدن كتاب بني مرين في (سيف منار القرويين)<sup>(12)</sup>.

أما المديح فقد شمل درراً غراء في مدح الرسول بالإضافة إلى مدح الملوك. ونلاحظ أن مديح بعض الأمراء انصب خاصة على بعض مآثرهم كتنويه علماء شعراء أفاض وهم عبد الواحد الونشريسي ويحيى السراج وعلي ابن هرون بالسلطان أحمد الوطاسي بمناسبة تجديد بناء قنطرة الرصيف بفاس<sup>(13)</sup>.

وقد انصب مديح بعض شعرائنا على الانتاجات العلمية فقرّظ شاعرنا الفذ محمد بن اليماني الناصري شقيق زميلنا الشيخ المكي كتاب «الاعلام» للمراكشي، فقال :

أنثير دُرَّ أم حَبَاب الكــــأس      أم أزهر الروض الأريض الكاسي  
أم تاج مائسة القوام وقد بدت      تذكي الغرام بعطفها الميــــاس  
كما مدح شعراء آخرون السلطان محمدا بن عبد الرحمن العلوي من خلال الإشادة بالمطبعة الحجرية التي أنشأها بفاس منها قصيدة مطلعها :

سألت الندى والجود أين حللتما      وأين مقر المجد والاثرات<sup>(14)</sup>  
وقد حرص علماؤنا على تجميع هذه الأنظام الرائعة في دواوين ك «الأمداح الحسنية» (أي السلطان الحسن الأول) التي جمعها عالم من سوس حين كان الحسن الأول خليفة بالجنوب (عام 1282هـ/1865م)<sup>(15)</sup>

وقد أشاد الشعراء في مدائحهم النبوية بشمائل الرسول عليه السلام أو بفضائل سرد أحاديثه و التمسك بنسبته وكان الملوك يهتمون منذ العهد السعدي أوائل القرن العاشر الهجري بإقامة حفلات لإنشاد البردة والهمزية و(بانت سعاد) بمناسبة حلول شهر ربيع الأول، فكان (المنصور السعدي) - كما ورد في «المنتقى المقصور في مآثر خلافة المنصور» لابن القاضي - (الباب الرابع) يستدعي الناس أيام المولد النبوي على ترتيبهم فيقرأ بعض القراء شيئا من كلام الولي الصالح «محمد بن عباد» ثم الميلاديات بألحان ذكية وإنشاد مقاطعات الشعر.

وقد دشن السلطان سيدي محمد بن عبد الله إتمام (جامع السنة) بالرباط فأقام حفلا كبيرا حضره المادحون فكان التلحين مناوبة بين أهل فاس وأهل تطاوين

ووزع بالمناسبة الأعطيات على الفقهاء والطلبة والمجاهدين<sup>(16)</sup> وفي عام (1290هـ/1873م) أقام السلطان (الحسن الأول) حفلة بمناسبة عيد الفطر بالرباط ختم خلالها «صحيح الإمام البخاري» على العادة الجارية وسردت خلالها نيف وخمسون قصيدة أجاز عنها كل الشعراء.

وقد نظم علماء المغرب والأندلس قصائد في التوسل بالرسول عليه السلام كانوا يوجهونها إلى القبر الشريف، ومن هذه القصائد قصيدة لابن مرزوق محمد بن محمد (خج 2417د).

ومن النماذج المصنفة في الموضوع كتاب «غنية العبد المنيب في التوسل بصلاة النبي الحبيب» لمحمد بن محمد بن ناصر الدرعي (1085هـ/1674م)<sup>(17)</sup> وهو مرتب على حروف المعجم لكل حرف خمس وثلاثون فقرة.

«القصائد المغربية في مدح خير البرية» لأحمد بن محمد المقرئ التلمساني الفاسي صاحب «نفح الطيب».

«مجموعة قصائد على حروف المعجم» في الموضوع لأبي سالم العياشي (من 700 بيت). وقد أشار أبوسالم في رحلته<sup>(18)</sup> إلى أمداح نبوية لشعراء مغاربة<sup>(19)</sup>، وأشار باشا السودان علي بن عبد القادر الشرقي المغربي (الذي كان مرفقا بمحمد بابا السوداني ومحمد بن عبد العزيز الدرعي وأحمد بن محمد السوداني) في رحلته إلى بعث رسالة سلطانية وتلاوة قصيدة أمام الروضة النبوية كما كان الأمر بالأندلس وفي عهد المرابطين<sup>(20)</sup>.

وقد جادت قرائح شعراء المغرب بقصائد في مناسبات وطنية كالإشادة بتحرير (العرائش)، وهي أنظام ألهمت قرائح المواطنين وحدثهم إلى مواصلة النضال لإجلاء العدو المغير عن (جيوب الساحل) في العهد الإسماعيلي.

ومن هذه القصائد قول عبد الواحد البوعناني :

ألا أبشِرَ فهذا الفتح نور      قد انتظمت بعزمكم الأمور  
وقصيدة لعبد السلام جسوس يعرض بوجوب تحرير سبتة قائلا :<sup>(21)</sup>

رفعت منازل سبتة أقوالها ————— تشكو إليكم بالذي قد هالها  
وثالثة للشيخ عبد السلام القادري مطلعها :

علا عرش دين الله كل العرائش      وهد بنصر الله قصر العرائش<sup>(22)</sup>

وقد نظم يوسف الشودري التطواني عند تحرير العرائش قصيدة مطولة (170 بيتا) قال فيها:

الحمد لله الذي قد أظهر ——— عصابة الدين على من كف——  
ونصر الإسلام والحق ——— وضل من دين الصليب عبدا

ولحمد بن علي الرافي التطواني قصيدة استهلها بهذا الهتاف :

هنيئا هنيئا وبشرى لنا ——— بنصر سعيد وفتح مبين<sup>(23)</sup>  
ولعمر الحراق :

ومن عجب تروم الروم حربا ——— بسهل أو حزون أو جبال  
وقد شهدوا العرائش يوم جاءت بها الأجناد تزحف للقتال<sup>(24)</sup>

ولنستمع للشاعر ابن الاعرج السليمانى (1926م) وهو يعبر عما فتت كبده من  
لواعج عند حصار الجيش الفرنسي لفاس (عام 1329هـ) .

سلا هل إلى ( وادي الجواهر) من قرب وهل أنبتت حافاته عاطر العشب؟  
(خج 1254 د)

ولحمد بن الشيخ سيد بن المختار بن الهبة الصحراوي (1284 هـ) شعر يحث  
فيه الصحراء المغربية على الانتفاضة لمحاربة كل من المستعمر الفرنسي والأسباني  
قائلا :

رويدك إنني شبهت دارا ——— على أمثالها تقف المهاري  
ولو في المسلمين اليوم حرٌّ ——— يفك الأسر أو يحمي الذمارا  
لفكوا دينهم وحموه لمَّا ——— أراد الكافرون به الصغارا  
حماة الدين إن الدين صار ——— أسيرا للصوص وللنصارى  
فإن بادرتموه تداركوه ——— وإلا يسبق السيف البدارا

وقد حفلت الدواوين بقصائد لا تخلو من فائدة تاريخية كديوان عبد الكريم بن  
محمد بن عبد الكريم القيسي (836 هـ 1481م) والذي يُعطينا صورة عن حالة المسلمين  
بالأندلس قبل النفي العام بسنوات، وقد سجل الناظم أحداث سقوط آخر مدن وحصون  
الأندلس.

ومن الملاحم الشعرية ما أشار إليه ابن خلدون<sup>(25)</sup> في (الحدثان) حول دولة لمتونة واستيلائهم على المغرب وكذا «نظم الدرر بأي أحمد أجل البشر» لأبي الحسن الرهوني وهو من الشعراء العلماء في منتصف القرن السابع الهجري يضم رجزه هذا 6.300 بيت نظمت بطلب من الخليفة المرتضى الموحيدي (665 هـ/1266م).

وقد انبثقت من ثنايا هذه المجموعات الشعرية نفثات نسائية كتعريضات الجارية المظلومة التي نشأت بالمغرب وأهداها يوسف بن تاشفين للمعتمد بن عباد فرمى بها في النهر لسبب تعريضاتها به<sup>(26)</sup>.

وهناك شوارع كسارة الحلبية الفاسية المتوفاة بمراكش (بين 656م و 685هـ) القائلة في مالك بن المرحل، ولعلها كانت تحبه : (يا ذا العلى ياملك أنعم علي بمالك). وورقاء بنت ينتان الفاسية (توفيت بعد 540هـ)

وقد عرفت الصحراء المغربية شوارع مثل ميمونة بنت محمد الحضرمي (المولودة عام 1307هـ/1889م) وقد كانت راوية للشعر مشاركة في العلوم.

وقد عني المغاربة بما نظمه الشلحيون من قصائد عربية أو أسهموا بها في إثراء الفكر الإسلامي. والشلحة هي لغة رجال الأطلس الصغير وهم الشلوح (وفيهم عرب من آل البيت لا يعرفون العربية) يقابلها في الأطلسين الكبير والأوسط والريف (تامازيغت).

وممن برز في الشلحة :

- الشاعر جامع بن محمد بن علي إيغيل (1387 هـ/1966م)<sup>(27)</sup> من قرية (اتوزنين) في (أقا).

- حمو قيس : له قصيدة في المديح النبوي (خخ 9356).

- حم المازغي : له نظم بالشلحة في التوسل بسيدي أحمد و موسى (ثلاث نسخ مصورة في خخ 1321د).

- الشيخ علي الدرقاوي والد الأستاذ محمد المختار السوسي (1328 هـ/1910م) نظم «الحكم العطائية» بالشلحة يقرأها أصحابه كل صباح بعد مجلس الذكر، ولكنه لم يستوف كامل الحكم<sup>(28)</sup>. وهناك عشرات الشروح النثرية لمصنفات عربية كشرح بالشلحة لعبد الله بن يحيى الحامدي (خخ 1098 د).

وقد نظم (سابق البربري) بيتين في فضل العلم :

العلم فيه حياة للقلوب كـ\_\_\_\_\_ تحيا البلاد إذا ما مسها المطرُ  
والعلم يجلو العمى عن قلب صاحبه كما يجلّي سواد الظلمة القمرُ  
«جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر» (ج1، ص59).

وقد نظم علي الهوزالي<sup>(29)</sup> شعراً بالتركية يمدح به بعض العجم وهو أحد كتاب الإنشاء بباب ولي العهد السعدي (عبدالله المامون) بالحضرة الفاسية، رحل الى القسطنطينية مع القائد أحمد بن يحيى الهوزالي<sup>(30)</sup>.

ومن أغرب اهتمامات علمائنا بما ينشر عنا خارج المغرب باللغات شعرا أو نشرًا قيام العلامة محمد بن علي دينية الرباطي (1358هـ-1938م) بتجميع وطبع أربعين قصيدة إسبانية و عربية لبعض المستشرقين من الإسبان<sup>(31)</sup>.

وقد استعرضنا فعلا الكثير من شعراء المغرب منذ أزيد من ألف عام، رتبناهم على الحروف الألفبائية فتاب حرف الألف وحده (235) شاعر، فيهم الحضري والبدوي والصحراوي، تبلور عطاؤهم في فسيفساء زاخرة بألوان اختلفت مجاليتها وتنوعت مواجدها في وحدة فكرية تناسقت أجزاءها بين المتوسط والمحيط وعبر الفيافي القاحلة مما قد لا نجد له إلا المثلث النادر. وقد انعكس على هذه الشاعرية - بالإضافة إلى نوافح الوجدان - إحساس غامر بوصف مظاهر الطبيعة ومجالي الحياة التي ينغمر فيها الشاعر، فتجد بين أصناف القريض بواصر وبوادر تشهد بتلقائية هذا الفيض الشعري الغامر الذي اتسمت بعض مظاهره بميزات طغت أحيانا على التقاليد الكلاسيكية مما يبرز نوعا من روح التجديد. إذ هناك نماذج من الأنظام الغزلية يقصد فيها أصحابها الاستهتار شكلا ومضمونا كابن غزلة الذي تغزل بأخت عبد المومن بن علي (رميلة) الشاعرة الزجالة، فأوغل كما أوغل استخفافا بالقواعد، فلحن في الموشح وأعرب في الزجل والمواليا «والكان وكان» ملحقا الزجل بالموشح عن طريق إعراب بعضه كما ألحق الموشح بالزجل فرّثمه وعرفت موشحاته بالموشحات المرتمة.

وقد حدا نافح التغزل بعض علماء الحديث إلى إفراغ قواعد الدراية والرواية أي مصطلحات الحديث في قوالب غزلية كقول (ابن فرج اللخمي) المراكشي (699هـ) في مطلع قصيدة علمية :

غرامي صحيح والرجا فيك معضل والحديث المعضل معروف  
وقد قال أبو المواهب سيدي العربي بن السائح في وصف الأتاي مستعملاً كلمة (معضل) وقد كان الناس يتركون شرب الشاي لما قيل في السكر آنذاك) :

واتركُ مقالةً مُغضَل في شأنها واروُ المسلسلَ موصلَ الإسناد  
ومن الشعراء الذين حاولوا التلاعب بضبط الألفاظ تلميحاً لبعض الصفات الشاعر  
الهرغي عبد الله بن محمد الذي حج (عام 747 هـ) حيث ألغز في (البربر) قوله :

وما أمة سكتاهم نصف وصفهم وعيش أعاليهم إذا ضم أوله  
ومقلوبه ياب الضم مشروب جلم وبالسكر من كل عليه معوله  
(«الدرر الكامنة» لابن حجر، ج 2، ص 402).

ولشاعر الدولة السعدية عبد العزيز الفشتالي (ت 1031 هـ) مولديات نقشت بها  
كتابات في (قصر البديع) بمراكش مع وصف رائع للمهرجانات المخزنية وحفلات  
الشموع.

وقد مدح محمد بن علي الوجدي الغماد (قبة الريح) وهي إحدى قباب  
(المنصور السعدي) بمراكش فقال، مشيراً الى (قبة الخيول) (وقبة النصر) :

أنا التي لسرور النفس مبدعة ومنظري لجياد حول ريحان  
لقبة الريح والأفراح ناظرة تاج الملوك الإمام الشيخ أنشاني  
وقد نظم محمد بن يوسف النجاري الفاسي في (السد) الذي بناه  
المنصور السعدي :

شتى مكارم لم تعد لقياس حاز الفخار بها أبو العباس  
فأقلها تأسيسه وسداده سد تعاضم أمره من فاس

(«الجنوة»، ص 149، «روضة الآس» للمقري طبعة الرباط، ص 338).

ومن شعر صاحب القلم الأعلى (أبي القاسم ابن رضوان) كتب على دواة  
موشاة بالذهب للسلطان (أبي سالم المريني) جاء في مطلعها :

لبستُ محاسن الوشي البديع وفقتُ بمنظري زهر الربيع

أما (المنصور الموحي) فقد حظي بمعظم ديوان يحيى بن عبد الجليل الشقوري  
المراكشي (587 هـ) الذي تضمن (9400) بيت وصف فيها (مقصورة القصب) التي





بمرسى العرائش مايشتهى وإن غيت عنها تشوقتها

ومثلها قصيدة للوزير ابن إدريس في مدح فاس :

ألا ليت شعري هل أبيئن ليلةً      بفاس وحولي من مُنْأَي ثلاث  
مغانٍ بها أغني وأهل وجلالة      أجل بهم بين الورى وأغاث  
وهل أردن وادي الجواهر جهرهً      وهل يبدون لي زالغ وتغاث  
(وزالغ وتغاث جبلان محيطان بفاس).

والشيخ العربي بن محمد بن يوسف الفاسي لما تغرب عن فاس :

وأي بلاد غير فاس تروقه ———هـ      وقد شب في أحضان فاس وشابا  
يرى كل ترب دون تربتها قذى      ويحسب ما فوق التراب ترابا  
ولحمد الفاطمي الصقلي (1311 هـ) :

حيي الحيا الواكب الأرجاء من فاس      دار تطيب بها للطيب أنفاسي  
تفوق أندلساً والشام نظرتها      كما يفوق بنوها جملة الناس

والواقع أن الشاعر المغربي قد استوفى جميع أصناف القريض في إبداع وتلوين ودقة في التعبير والتصوير والتنظير مع بادرآت رائعة أضفت - كما رأينا - طابعا خاصا على هذا اللون من الإشعاع الفكري الذي لو حاولنا تقصيه لاستغرق الاستقراء العديد من المجلدات، وأروع ما نلمسه في مختلف الأنظام الصراع بين نوازع وجوانب متضاربة حيث زخر الشعر المغربي مع توالي العصور برنآت حماسية وخلجات عاطفية ولقاءات واقعية غلب جانب منها أحيانا على جانب آخر تبعاً للنوازع التي فجرت المشاعر فكان للحروب الصليبية أثرها، ولأساة (الفردوس المفقود) وخزاتها منذ القرن التاسع الهجري أنست الشاعر ورود الخدود ورشاقة القدود فامتلاً الشعر وأصبح نحيب الشعراء ينسكب في مراثي مُحزنة كلما استولى العدو على مَعْنَى من مغاني (العدوتين) أو مربع من مربعهما. ولعل هذا التفجع انطلق منذ ألف سنة حيث قال الإمام السهيلي المراكشي عندما خرب الأسبان مسقط رأسه (سهيل) :

يادار أين البيــــض والآرام      أم أين جيرانُ علي كــــرام ؟  
راب المحب من المنازل أنــــه      حَيٌّ فلم يُرجع إليه ســــلام

وقام (أبو بكر محمد بن صاحب الصلاة) خطيباً في وفد الأندلس أمام عبد المومن بن علي فأنشد من حماسياته ما أذكى النفوس وألهب الأحاسيس، وأهاب بالخليفة إلى نجدة الأندلس المهدد، وهنا امتزجت روح الشاعرين المغربي والأندلسي في زفرات على انتشار عقد الأندلس الذي ظل منتظماً نحواً من ثمانية قرون، فبكى أمثال (أبي البقاء صالح بن شريف) وأبكى حين قال :

لمثل هذا يذوب القلبُ في كمد      إن كان في القلب إسلام وإيمان

غير أن الشاعر ما لبث أن عاد إلى أفانيه ومنازعه في التغني بالسوالف والحدود فقال السلطان زيدان بن المنصور الذهبي :

فتنتنا سواف وخـــــــــــــــــدود      وعيون مدعجات رقـــــــــــــــــود  
ووجوه تبارك الله فيــــــــــــــــها      وشعور على المناكب ســــــــــــــــود  
أهلكتنا الملاح وهي ظــــــــــــــــباء      وخضعنا لها ونحن أــــــــــــــــسود

وانساق الشعر عبر القرون التالية في متاهات الحب وفيها في الوجدان، فلنستمع إلى الشاعر (المهدي الغزال) وهو يصف راقصة :

قامت بكأس الراح راقــــــــــــــــصة      بين الغواني رقصها طــــــــــــــــرب  
كأنها والكأس في يدهــــــــــــــــا      بدر تبدى حوله كوكــــــــــــــــب  
ثم يقول متأثراً برهادة العصر :

الموت لاشــــــــــــــــــــــــــــــــك أت      وكل أت قريــــــــــــــــــــــــــــــــب  
فثب وثب قبــــــــــــــــــــــــــــــــل أن      يعتريك منه وثــــــــــــــــــــــــــــــــب  
وللشاعر عبد القادر بن شقرون القائل :

اسقياني كؤوس بنت الدوالي      إن عراني السقام فهي الدوا لي  
كم ليالٍ قضيتها في نعيــــــــــــــــم      حفظ الله عهدَ تلك الليالــــــــــــــــي  
بين راح وشمعة ومغــــــــــــــــن      وظباء قنصُها باحتيــــــــــــــــال



وعبد الله الفاسي سفير السلطان مولاي عبد الحفيظ بباريس القائل :

هاذي المناطق فوق الجو تنشدنا      هاذي المآثر والآثار في السدول  
هذا القطار يخذ الأرض ممتطياً      متن البسيطة في سهل وفي جبل  
هاذي البواخر في عمق البحار وفي      أعلاه تفعل فعل الفارس البطـل  
هذا التمدن هذا الفضل فاعن به      ليس التمدن بالألحان والغزل

ومع ذلك فقد ظل الشاعر يتغنى ويتشعب لا فرق في ذلك بين عالم زاهد وفتى خليع، فاستمع إلى الفقيه الناسك أحمد البلغيثي :

بدت لي ترنو بالعيون الفواتر      ولكن لها في القلب وقع البواتر  
بدت لي وفي قلبي المعنى بحبها      لواعج أشواق كحر الهواجـر  
وتقاربت آنذاك أبعاد الوطن العربي في خضم التحالفات الاستعمارية فاشتد حنين بعضها لبعض وبدأ المغرب يردد في تلهف وحنان أصدااء الشرق المتناهي الذي حالت دونه حجب مفتعلة مترسما خطاه في كل شاذ وفاذ، فعبر الشاعر المغربي عن حرقة الأدباء في فجيعتهم ب ( المنفلوطي ) حيث أنشد (محمد بن اليماني الناصري) هذا اللون الجديد من الشعر مشيراً إلى بعض مصنفات الفقيد.

ما للمعارف ترسل «النظـرات»      نحو الثرى وتسلسل «العـبرات»  
فالمغرب الأقصى يعرِّي مصرَ في      ذاك الأبي مذلّ العقبــــــــــــــــات  
ومنذ ذاك بدأنا نستشف من خلال نماذج شعرية اتجاهاً جديداً في التفكير، ولكن التأرجح بين العقل والوجدان قضى بغلبة هذا على ذاك، فهذا الشاعر الكبير علال الفاسي يقول :

مضى الشطر من عمري وإني دائماً      حليف هوئى مغرٍ وخذنٌ أذى مُعدي  
وأطمح للروحى كبلسم جرحها      فتأبى سوى صديّ وتأبى سوى رديّ  
وأطلب عقلي منجداً في كفاحنا      ولكنها تطغى على العقل في الحد  
تُجاذبني أهواءها وتمد لــــي      ظللاً من الألوان لأمعة المــــد

ولكنه فجر مع ذلك في دواوينه سيولا غامرة فتقتق قنوات الصراع وينابيع الاستشهاد في الكفاح ضد المستعمر.

ومثله عبد الله ابراهيم في قوله :

|                                      |                                    |
|--------------------------------------|------------------------------------|
| سر كرعش الكهريــــــــــــــــاء     | أفشته ألسنة القضــــــــــــــــاء |
| فأنا هنا قوى اندفــــــــــــــــاع  | ليس يحكمها ذكــــــــــــــــاء    |
| فسل النجوم لو النجــــــــــــــــوم | تجيب في لغة الضيــــــــــــــــاء |

إلى أن قال :

|                                      |                                       |
|--------------------------------------|---------------------------------------|
| ياليت شعري ما القضــــــــــــــــاء | وكيف أفشاني القضــــــــــــــــاء    |
| أمصير أتعاب الشعــــــــــــــــوب   | وما بنته الى الفنــــــــــــــــاء ؟ |

وقد أدليت بين الدلاء وأنا ابن العشرين فقلت أصف الربيع :

|                                         |                                     |
|-----------------------------------------|-------------------------------------|
| النور بدد ما اعتكــــــــــــــــر      | لما بدا ضوء القمــــــــــــــــر   |
| والأرض في جنباتهاــــــــــــــــا      | عرف الربيع قد انتشــــــــــــــــر |
| وانساح في الروض المنمنمــــــــــــــــ | خده موج البشــــــــــــــــر       |
| فالجو يغشاها السنــــــــــــــــاء     | ببرقة تجلو النظــــــــــــــــر    |
| والقلب يخفق نشــــــــــــــــوة        | فيشع بالزهو البصــــــــــــــــر   |
| والنفس نبّع فيضــــــــــــــــها       | فتزاحمت فيها الفكــــــــــــــــر  |
| والطير يشدو زاهيــــــــــــــــاً      | من فوق أفنان الشجــــــــــــــــر  |
| نبراته رقراقــــــــــــــــة           | مثل الزلال بلا وتــــــــــــــــر  |

تلك نماذج مزجاة لعلها ترسم لنا صورة واضحة عن هذه الفسيفساء التي أبدعت زخرفتها شاعرية مغربية فياضة منذ أزيد من ألف سنة. وقد حفل بحثنا بتراجم لهؤلاء الشعراء ألحقنا بكل ترجمة خلاصة المظان والمراجع التي استقينها منها وهي تشكل رصيда ثريا أحلنا عليه القارئ الكريم ليقتبس منه المزيد من الانتاج الشعري المغربي ، ونود الآن الإشارة إلى مراجع أفردت لوصف هذا التراث، وقد سقناها على سبيل المثال لا الحصر منها (حسب الترتيب الأبجدي) :

- «نثر الجمان في نظم فحول الزمان من أهل المائة الثامنة من فرسان الكتيبة الكامنة» (الفصل الثاني في شعراء الأندلس والمغرب) لأبي الوليد بن الأحمر.
- «شعراء أهل البيت»: ديوان جمع فيه السلطان المنصور السعدي شعراء أهل البيت، أتى فيه على أزيد من ألف ترجمة مع شعره هو «كشف الظنون» (ج 1، ص 400) وأشار (الشهاب) في (الخبيا) الى هذا الديوان وذكر (الزياني) أنه وقف عليه إلا أنه لم يستوف الألف شاعر من أهل البيت.
- «الكوكب الثاقب في أخبار الشعراء وغيرهم من ذوي المناقب» لعبد القادر بن عبد الرحمن السلاوي الفاسي، ألفه (عام 1176هـ/1762م) يحتوي على مقدمة وعشرة أبواب وخاتمة في غرائب الشعر وفنونه وحكاياته (خج/925، التيمورية 335 تاريخ، 473 ص، دار الكتب المصرية (4845 أدب) مكتبة الشاذلي النيفر بتونس / دار الكتب الوطنية بتونس ق. 275 - س. 250 / مكتبة حسن حسني عبد الوهاب (18429) / «السلوة»، ج 2، ص 186، «فواصل الجمان»، محمد غريط، ص 199.
- كناشة لعبد العزيز الغريديس أورد فيها أشعارا وتراجم مغربية (خج 1081د).
- كناشة لعبد الواحد بن محمد بن فقيرة المكناسي (1317هـ/1899م) جمع فيها أشعار أدباء القرن الثالث عشر (خج 158د/157د).
- «المطرب من أشعار أهل المغرب»، تحقيق د. مصطفى عوض لعمر بن الحسن ابن دحية السبتي (633هـ/1264م).
- «الأدب العربي في المغرب الأقصى» لمحمد بن العباس القباج (1399هـ/1979م) طبع في مجلدين عام 1929 وتجدد طبعه أخيرا.
- «الغصون الياضنة في محاسن شعراء المائة السابعة» لابن الأبار محمد بن عبد الله القضاعي (658هـ/1259م) (نسبه بروكلمان غلطا لابن الخطيب).
- «الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة» لمحمد بن عبد الله ابن الخطيب السلماي (776هـ/1374م) طبع ببيروت عام 1963 كاملا وطبع طرف من أوله بمطبعة يماني بفاس (عام 1327هـ/1909م) توجد نسخة في خزانة القرويين (خج 132) المكتبة الوطنية بتونس (408م) ثلاث نسخ في خج (6117/756/559) مكتبة الغلاوي (خج) / مكتبة تطوان (192) / الزاوية الحمزاوية 128-141).
- «قصائد مختارة لأدباء العصر» لمحمد بن علي بن محمد بن أحمد الرافعي

التطواني(كان حيا عام 1116هـ/1698 م).

«تاريخ تطوان» ج 1، ص 372-390/ ج 2، ص 12-30)(وهو صاحب ديوان الشعر الحاوي لثلاثة آلاف بيت مرتب على حروف المعجم).

- «الروض الأريض من بديع التوشيح ومنتقى القريض» وهو ديوان شعر لمحمد بن قاسم بن محمد بن عبد الواحد ابن زاكور الفاسي (1120 هـ/1708 م) صاحب «عنوان النفاسة في شرح ديوان الحماسة» ( يوجد النصف الأول منه في الزاوية الحمزاوية 110-164).

- كناشة لمحمد بن محمد بن الحاج بن سودة (1122 هـ/1710 م) تحتوي على مختارات أدبية لشعراء من معاصريه كمحمد بن محمد ابن غازي (خع 163 د).

- «إفادات وأشعار» لخالد بن محمد الهادي العمري الطنجي، بقلم محمد بن محمد بن يحيى الطنجي (خع 2847).

- «الغرة الطالعة في شعراء المائة السابعة» لابن هاني محمد اللخمي السبتي (733 هـ/1332 م).

- «نبذة الزهريات» لمحمد بن يحيى الصقلي نزيل الدار البيضاء (جمع فيه مساجلات غرامية مع بعض الشعراء) - مطبعة العرب بتونس (1342هـ-1924 م) (21 ص).

- «الشعر النسوي في الأندلس» لمحمد المنتصر الريسوني - بيروت، دار مكتبة الحياة، 1978 (192 ص).

- «شعراء موريطانيا القدماء والمحدثون» لمحمد بن يوسف مقلد، الطبعة الأولى - الدار البيضاء - مكتبة الوحدة العربية 1962 (752 هـ).

- «رايات المبرزين وغايات المميزين» في شعراء الأندلس والمغرب، مكتبة الأزهر (أدب 642) (7224) طبع بمدير عام 1942م/1361هـ مع الترجمة الأسبانية.

- «نفائح الأزهار في أطايب الأشعار» للمولى عبد الحفيظ.

- وهناك عشرات المراجع والمطان تتحفنا بنبذ رائعة من شعر فحول القريض قد نستجلي بعض مختاراتها في بحث لاحق.



## المراجع

- (1) كلمة لابي المواهب سيدي العربي بن السائح في رسالته (إفادات وإنشادات) وهي نسخة مخطوطة مصورة في مكتبتني الخاصة عن مخطوط الخزانة العامة بالرباط (خغ) ص 21.
- (2) توجد منه نسخة في ( خغ 1013د) وآخرين في خغ 7095-7698.
- (3) «السلوة» ج 2، ص 39، توجد نسخة بمكتبة تطوان ( رقم 225).
- (4) «المعجب» لعبد الواحد المراكشي طبعة سلا (1357 هـ / 1938) ص 128، وقد تراوحت قيمة الدينار بين 4 و 5 غرامات من الذهب.
- (5) «الاعلام» للمراكشي، ج 4، ص : 367، الطبعة الأولى.
- (6) «تاريخ ابن الفرضي» ج 1، ص : 323. «بغية الوعاة» ص : 58 «العبر» للذهبي، ج : 3، ص 181.
- (7) صاحب «أنس السمر في نوادر الفرزدق وجريز» توجد نسخة من هذه المخطوطة القيمة في خزانة القرويين (خغ 635/80) (188 ورقة) وفي خغ (300 ك) (339 ورقة) والمكتبة الحسنية (خغ 1297/1932) والمكتبة الصبيحية بسلا (رقم 283) (200 ورقة).
- (8) «معجم البلدان» ج 6، ص 365.
- (9) ذكر «كتاب الضرائر» هذا عبد القادر البغدادي في (خزانة الأدب)
- (10) توجد نسخة بالخزانة الأحمدية السودية بفاس ضمن مجموع (80 بيتا).
- (11) «الاعلام» للمراكشي، ج 5، ص 56 - الطبعة الأولى.
- (12) في كتاب «نثير الجمان من أهل المائة الثامنة من الفرسان» ( دار الكتب المصرية عدد 3791/ 1963) وتوجد نسخة بالخزانة الحسنية بالرباط - طبع في بيروت بدار الثقافة عام 1967.
- (13) «الاستقصا» ج 2، ص 178.
- (14) نسخة مخطوطة في خغ 1115 د.
- (15) نسخة بخزانة العلامة المختار السوسي.
- (16) (كتاب النهضة العلمية في عهد الدولة العلوية) لعبد الرحمن بن زيدان.
- (17) نسخة بالمكتبة الوطنية بتونس (3848 م ) / خم 7520 باري/ 6230 القاهرة 1334.
- (18) ج 1، ص : 6-9-12-310.
- (19) جمعت في مخطوطة توجد بخزانة الأستاذ محمد المنوني.
- (20) راجع في « الأنيس المطرب » للعلمي : القصائد العشرة في الشوق للبقاع المطهرة). وهي مرتبة على حروف المعجم، راجع مجموعة منها في «ركب الحج المغربي» لمحمد المنوني ص 44 - راجع ملخص الرحلة في «الاعلام» للمراكشي، ج 4، ص 273. الطبعة الأولى.

- (21) «نزهة الحادي» ج 4، ص 35 و 262).
- (22) نفس المصدر، ج 4 ، ص 36.
- (23) «نشر المثاني» ج 2 ، ص 40.
- (24) «تاريخ تطوان» لمحمد داود، ج 2، ص 12.
- (25) «المقدمة» م اص 602 (طبعة بيروت) / «معجم البلدان» ج 4، ص 27.
- (26) «نفح الطيب» ج 2، ص 454 مطبعة مصر.
- (27) «المعسول» محمد المختار السوسي ( ج 16، ص 261).
- (28) «المعسول» ج 1 ص 184.
- (29) من هوزالة ( أوزال) بسوس.
- (30) «روضة الآس» للمقري (المطبعة الملكية بالرباط ، ص 90 .
- (31) طبعت في تطوان في 144 ص.
- (32) «الإعلام» للمراكشي، ج 7، ص 95 - 106، الطبعة الأولى .
- (33) لمحمد بن سعيد بن محمد الرعيني السراج الفاسي (778 هـ/1376م) «الجنوة» ص 147 «السلوة» ج 3، ص 278) أيضا «رسالة في الوعظ والشعر».